(الدروس المستفادة من أعمال الحج)

الحمد لله رب العالمين، إله الأولين والآخرين، وقيوم السماوات والأرضين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصابرين، وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وعظيمنا وشفيعنا محمدا عبده ورسوله النبي الأمي الأمين، فاللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحابته أجمعين، وبعد:

فريضة الحج عبادة جليلة في الإسلام، فهي مدرسة كبرى يتربى فيها أهل الإيمان، ولذلك فرضها الله على المستطيعين لها رجالا ونساء من كل مكان، قال تعالى: **(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)**، (آل عمران: 97).

وفي الحج كثير من الدروس المستفادة التي تربط المؤمن بربه، منها:

أن الحج يذكر المسلمين بيوم القيامة، بل يجعلهم يعيشون في كثير من أحداثه لينتبهوا ويستعدوا لهذا اليوم العظيم، لأن هناك تشابهًا عجيبًا بين الحج واليوم الآخر؛ فالحاج يخرج مودِّعًا أهله، وهذا يذكِّر بمفارقته لهم حال خروجه من الدنيا، فيتذكر الحاج ويتذكر الناس جميعًا أن هناك يومًا سيخرج الناس لتوديعه، لكن من غير عودة، وملابس الحج بالنسبة للرجال تُذكِّر الناس جميعًا بيوم القيامة؛ فهي ملابس لا مخيط فيها ولا جيوب ولاشيء من بهرجة ملابس الدنيا، وأشبه شيء لها الكفن الذي يكفن به الإنسان حينما تخرج روحه من جسده ويودع تلك الدنيا، وملابس الحج يكون فيها كشف لبعض أجزاء الجسم للرجال، فأنت تكشف كتفك في الحج؛ وهذا يذكرك بالعري الكامل يوم القيامة، ولكي تتذكر الصورة التي ستكون عليها يوم الحساب؛ روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ρ: **(يُحشَر الناس يوم القيامة حفاةً عراةً غُرْلًا، قلت: يا رسول الله، النساء والرجال جميعًا، ينظر بعضهم إلى بعض، قال ρ: يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض)**.

حتى قبل أن يرتدي الحاج ملابس الإحرام يهيئ نفسه للحج كما يهيئه الناس بعد موته، فيغتسل ويتطيب ثم يلبس إحرامه كما يُغسل الميت ويُطيب ثم يلبسونه الكفن، وفي كلتا الحالتين يذهب للقاء ربه، لكن شتان ما بين الصورتين، ففي الأولى يذهب لربه بنفسه في بيته الحرام، وفي الثانية يحمله الناس إليه حينما يُدفن في قبره.

وبعد أن تذهب إلى الحج تعيش في جوٍّ أشبه ما يكون بيوم القيامة، فالناس جميعًا في الحج وُقُوفٌ، وفي زحام شديد، وكلهم واقفون في مكان واحد، في عرفة؛ يقول ρ: **(الحج عرفة)**؛ (أخرجه أحمد).

وكذلك يُحشَر الناس في مكان واحد يوم القيامة إذ ينادي عليهم المنادي: هلموا إلى ربكم، فيقوم كل الناس لرب العالمين؛ قال تعالى :**(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)**. (الصافات:24).

وحينما يسعى الحاج بين جبلي الصفا والمروة فليعلم أن هذا السعي يجسد رحلة السيدة "هاجر" في بحثها عن الماء لنتعلم السعي والاجتهاد الدنيوي، فهي لم تقعد مكتوفة الأيدي بل أخذت بالأسباب لإنقاذ وليدها.

كما نتعلم منه إدراك أن السعي والأسباب لا تأتي بالنتائج بذاتها، بل بتوفيق الله ورعايته، فعندما نفدت الأسباب المادية، تفجّر ماء زمزم من حيث لا تحتسب.

وكذلك نتعلم منه السعي في الأعمال الصالحة، فكما يحصل الساعي بين الصفا والمروة بإخلاص على رضا ربه، كذلك الحال في من يسعى في عمل الصالحات، حيث يرضى عنه رب الأرض والسماوات، فيعطيه ربه الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة، قال تعالى :**(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)** (النحل: 97).

ومن أهم الدروس وحدة المسلمين: الحج موسم عظيم، تتجسد فيه وحدة المسلمين في أبهى مظاهرها وأجمل حللها، حيث تذوب الفوارق، وتتلاشى الحواجز، ويجتمع المسلمون في مشهد جليل، يبعث على السرور، ويسعد النفوس ويبهج الأرواح.
يجتمع المسلمون من أقطار الأرض حول هذا البيت العتيق، الذي يتجهون إليه كل يوم خمس مرات، البيت الذي يقصدونه بقلوبهم وأفئدتهم من خلال صلواتهم في بلادهم الشاسعة البعيدة، ها هم الآن يجتمعون حوله ويرى بعضهم بعضاً، يتصافحون ويتشاورون ويتحابّون، خلعوا تلك الملابس المختلفة والمتباينة من على أجسادهم، فيكون زيهم واحد، وهو الإحرام، وشعارهم واحد وهو التلبية، ومكانهم واحد، في المسجد الحرام، ويجتمعون في زمان واحد، في موسم الحج، ويتجهون إلى إله واحد، فلماذا بعد كل هذا نرى الفرقة بين بعض المسلمين؟

قال تعالى: **(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ)** (الأنبياء: 92).

يُذكر أن أحد الجنرالات المعروفين بخبرتهم العسكرية في بعض الدول الأوروبية سئل عن الوقت الذي يحتاجه لترتيب وتنظيم الآلاف من الجنود فأجابهم بنصف ساعة وأن هذا وقت قياسي لترتيب هؤلاء الجنود، لكنه صدم لما علم أن ملايين المسلمين الذين تختلف بلدانهم ولغاتهم وأحوالهم ينتظمون بكلمة واحدة في موسم الحج حينما يقول الإمام في المسجد الحرام في بداية الصلاة الله أكبر.

ولو فهمنا هذا الدرس وحده لكفانا، ولتحول به حال المسلمين من الضعف إلى القوة، ويأتيهم من ربهم النصرة، قال تعالى: **(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)** (الأنفال: 46).

ومن أهم ما نتعلمه من دروس الحج أن المسلم صاحب شخصية مستقلة، ليس إمعة ولا يقلد غيره تقليدا أعمى كما نرى من بعض شباب المسلمين، بل يتبع سبيل ربه ويترك كل ما يخالفه، هكذا علمنا النبي ρ في الحج، ففي التلبية قد علمنا النبي ρ مخالفة أهل الجاهلية في تلبيتهم حيث كانوا يلبون كما في صحيح مسلم: ((لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك)، فعلمنا النبي ρ التلبية الصحيحة فلا ننساق خلف غيرنا كما في صحيح البخاري نقول: **(لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك).**

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.

كتبه فضيلة الشيخ/ محمد منصور محمد – مبعوث وزارة الأوقاف المصرية بالبرازيل.